الموضوع الثالث

الانكشارية

لما كان الطابع العسكرى الشديد الصرامة إحدى سمات الدولة العثمانية ، لم تظفر هيئة بها بمثل الاهتمام الذى ظفر به الجيش العثمانى وخاصة أنها كانت تنظر إلى الجيش على أنه أداتها فى الفتوحات الحربية ، ووسيلتها فى حكم الأقاليم التى استولت عليها ، ودرعها فى الدفاع عن ممتلكاتها[1] لدرجة أن شبه بعض المؤرخين الجيش العثمانى بعملة نقش على أحد وجهيها لفظة الحرب ، وعلى الوجه الآخر كلمة الحكم .

وقد اعتمد قوام الجيش العثمانى على تجنيد أبناء رعايا السلطان من المسيحيين ، وذلك من طريق ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة فى استانبول سماها العديد من المؤرخين "ضريبة الغلمان" وسماها بعضهم "ديوشيرمه" ، فقد كان العشرات من صغار هؤلاء الرعايا يؤخذون من أهلهم ، وتتم تنشئتهم بطريقة تتسم بالصرامة والتدريب العقلى والجسمى ، كما يتم تحويلهم إلى الإسلام ثم يختار منهم من يصلح للعمل فى مشاه الجيش العثمانى ويطلق عليهم الانكشارية ومعناها الجنود الجدد ، ومعنى ذلك ان هؤلاء الجنود كانوا بمقتضى اعتناقهم الإسلام وإبعادهم عن بلادهم الأصلية وترسيخ الولاء للسلطنة فى نفوسهم يفقدون روابطهم الأصلية ، كما أنه لم يكن فى امكانهم تكوين روابط اجتماعية جديدة وخاصة أنه لم يكن يسمح لهم بالزواج ، ولم يكن لهم أقارب بين الأهالى ولم يكن يسمح لهم بأن يبتعدوا عن ثكناتهم وبذلك توثقت روح الجماعة بينهم ، كما تعمق ولاؤهم للسلطان[2] وصاروا لا يعرفون لهم أبا إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد فى سبيل الله[3] ، ولا

١- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ، ص ٤٧١ .

٢- Adward Creasy : History of the Ottoman Turks, London 1818, P. 14

٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٤٢ .

مسكنا إلا ثكناتهم العسكرية .

وترجع فكرة فرض ضريبة الغلمان إلى وزير السلطان "أورخان" ثانى سلاطين آل عثمان المسمى "هابيل الأسود" . وقد أعجب السلطان بهذه الفكرة ، ولما تجمع لديه عدد غير قليل من هؤلاء الغلمان سار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ الطريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيش الجديد ، ثم حرف هذا الاسم فى العربية فصار الانكشارى ، وبالتدريج ازداد عدد هؤلاء وصاروا من أهم الركائز التى اعتمدت عليها الدولة فى حروبها وبسط سلطانها[1] ولكنهم صاروا بعد ذلك من أسباب تأخر الدولة وتدهورها . وقد بلغ عدد كتائبهم التى كانت تسمى كل منها أورطة ١٦٥ كتيبة ، ولم يزد عددهم على خمسة عشر ألف رجل[2]، وكانت هذه الكتائب منظمة تنظيما متشابها وتعداد كل منها متساويا ، وكانت كل منها تحت قيادة ضابط يدعى (الجورباجى) يساعده ستة من مرؤوسيه وعدد من ضباط الصف ، وكانت تقيم فى ثكنات تسمى أورطة) ولكل كتيبة شارة توضع على أعلامها وعلى أبواب ثكناتها[3] ، كما كانت توضع هذه الشارات على أذرعة الانكشارية وسيقانهم عن طريق الوشم ، وهذه الشارات كانت عبارة عن سمكة أو مفتاح أو خطاف . وكان ضباطهم يلقبون بألقاب تدل على أنهم كانوا يعيشون من انعامات السلطان وأنهم كأولاده ، ومن ألقابهم "شوربجى باشى" و "عشى باشى" و "اوده باشى" و "سقا أغاسى" إلى غير ذلك من الألقاب ، وكانت هذه الألقاب عندهم بمثابة عنوانات خاصة بالرتب العسكرية ثم أنهم كانوا يعظمون قدور الطعام ولا يفارقونها حتى زمن الحرب ، وكانوا يدافعون عنها دفاع الجنود عن أعلامهم لدرجة أن ضياع إحدى هذه القدور كان بمثابة إهانة تلحق بأصحابها العار ، وكانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا من بعض أوامر رؤسائهم يقلبون القدور أمام ثكناتهم[4] .

وكانت ترقيات الانكشارية تتم طبقا لقواعد الأقدمية ، وكانت الدولة تسرح الذين تتقدم بهم السن أو تصيبهم عاهة تقعدهم ، وفى كلتا الحالتين تقرر لهم الدولة معاشا .

١- محمد فريد : المرجع السابق ٤٢ .

٢-كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص ٤٦٦ .

٣- المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة العدد ٢٥-٢٦ فى يونيه ١٩٨٢ ص ١٠١ مقال الدكتور علاء موسى كاظم تحت عنوان "مسئولية الانكشارية فى تدهور الدولة العثمانية" .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٢ .

وقد خصت الدولة الانكشارية بعدة امتيازات منها أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم من خزانة السلطان ومنها منحهم حصانة تمنع السلطات المدنية من القبض عليهم ، وقيام ضباط الانكشارية بمعاقبة الأفراد المخطئين بأنفسهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والاعدام ، وكانت عقوبة الخصاء توقع على معتادى الاجرام من الانكشارية أو ممن تتعدد حوادث خروجهم على قواعد الانضباط العسكرى فيأمر رئيس الانكشارية باجراء عملية الخصاء الجزئى أو الكلى لمن يحكم عليهم بذلك وبمقتضاها يفقد الانكشارى رجولته ويلتحق بالخدمة الداخلية فى القصر السلطانى .

وكان رئيس الانكشارية ويطلق عليه أغا الانكشارية أو بالمصطلح التركى (ينى شرية أغاسى) من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية فى سلاح المشاة تحت تصرف السلطان(١) ، كما أنه كان يعمل أيضا مديرا للشرطة فى استانبول وبجانب ذلك فانه كان بحكم منصبه عضوا بمجلس الدولة ، كما كان مقدما على كل قواد الدولة(٢) .

وترجع أهمية الانكشارية إلى عوامل عدة منها : كفاءتهم القتالية ، وشجاعتهم المفرطة ، ووفرتهم العددية ، وضراوتهم فى المعارك الحربية ، فكانوا يشكلون ثقلا حربيا أساسيا فى الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا أو هجوما سواء فى آسيا أو أوربا أو افريقية .

وقد ترجع ضراوة الانكشارية فى القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التى اتسمت بها تربيتهم وخاصة أنهم كانوا يفتقدون جو الأسرة التى تزكو فيه شتى مشاعر الحب والعطف والحنان فنشئوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التى تساعد على تهذيب الطباع ، وتركز اهتماهم على الاستبسال فى الحروب واسترخاص الموت . وكان الانكشارية غالبا ما يأخذون أماكنهم فى طليعة الجيش وقلبه فى أثناء المعارك وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم وإلى جانبه بيرق الحرب . وإلى جانب ذلك كان الانكشارية يتبعون السلطان فى تنقلاته وخصوصا أن بعضهم كانوا يؤلفون الحرس السلطانى(٣) وقد جعلهم ذلك يشعرون بمكانتهم .

وبقيت كتائب الانكشارية سندا وعونا للدولة فى فتوحاتها ومواجهة أعدائها ، واستطاعت الدولة عن طريقهم أن تمضى قدما فى سياسة التوسع ومواجهة أقوى جيوش

١- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢ .

٢- هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامى والغرب - ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١م ص ٨٩ .

٣- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢-٤٨٣ .

أوربا . ثم انقلبت الأمور رأسا على عقب بعد أن استشرى نفوذ الانكشارية وداخلهم الغرور ، وأخذوا يتسلطون على أمور الدولة ، ويزجون بأنفسهم فى أمر تعيين السلاطين، وتوالى تمردهم بعد ذلك فصاروا تقلا كبيرا على كاهل الدولة ، لدرجة أن بلغ بهم الأمر أنهم لا يسمحون للسلطان الجديد بارتقاء أريكة الحكم قبل أن يغدق عليهم العطايا التى أطلق عليها كلمة البخشيش . وإلى جانب ذلك بدأت ظاهرة تدخل الانكشارية فى المسائل السياسية منذ عهد السلطان بايزيد الثانى ١٤٨١-١٥١٢ ، وظهر تمردهم على السلطان سليم الأول فى أثناء محاربته للصفويين فى فارس ومطالبتهم له بوقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات فاضطر إلى العودة إلى بلاده استجابة لضغوطهم[١]، وتكررت حالات التمرد بعد ذلك . وإلى جانب ذلك تمادوا فى مطالبهم غير المشروعة كلما آنسوا من السلطان الحاكم ضعفا ، ووصل بهم الأمر أنهم كانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء وكبار رجال الدولة ، ويقتلون بعضهم ، ويتدخلون فى تعيين غيرهم فى المناصب التى تخلو بقتل أو عزل شاغليها .

وازدادت مخاطر الانكشارية تفاقما عندما قررت الحكومة العثمانية تطوير جيوشها بعد الهزائم التى حاقت بها وذلك بادخال النظم العسكرية الحديثة التى أخذت بها الدول الأوربية فى جيوشها ، فقد عارض الانكشارية ادخال مثل هذه النظم معاضة شديدة، وكانوا أكبر عقبات الاصلاح العسكرى فى الدولة العثمانية ، لاعتقادهم أنها ستؤدى إلى إدماجهم أو ذوبانهم فى الفرق العسكرية الجديدة ، وبدأوا فى اعلان تمردهم وعصيانهم فى وجوه السلاطين ، فاغتالوا السلطان سليم الثالث فى عام ١٨٠٨ لاصراره على إدخال النظم العسكرية الحديثة بين صفوفهم ، ونجحوا فى إجبار عدد من السلاطين على إلغاء هذا النظام الجديد ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتدت شرور الانكشارية إلى المدنيين فاقتحموا بيوتهم وانتهكوا أعراضهم ، وعمدوا إلى حرق الأحياء التى تقف أمامهم ، وهاجموا المحلات التجارية ، وبعد أن فاض الكيل وأصبح الانكشارية أشد عناصر الفساد فى جسد الدولة ، رأت الحكومة إبعادهم عن العاصمة فأمرت بتوزيع فيالقهم على الحدود، كما سمحت لهم بالزواج لشغلهم بمشكلات الحياة الزوجية ، وأذنت لهم بممارسة بعض الحرف والاشتغال بالتجارة فى أوقات السلم ، ومع كل ذلك فقد ظل الانكشارية مركز قوة[٢] . ولما تولى السلطان محمود الثانى العرش ١٢٢٣هـ (١٨٠٨-١٨٣٩م) أدرك أنه لن يتمكن من وقف طغيان الانكشارية إلا باصلاح أحوال الجيش ، فجمع أعيان الدولة وكبار ضباط الانكشارية فى بيت المفتى وقام الصدر الأعظم سليم

١- جلال يحى : العالم الإسلامى الحديث والمعاصر جـ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ص٥٨٦-٥٨٧ .

٢- الشناوى : المرجع السابق ص٤٩٤-٥٠٢ .

أحمد باشا خطيبا فبين الحالة التى وصلت إليها الانكشارية من الضعف والانحطاط والقصور فى فنون الحرب الجديدة ، وبين ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة . ثم أتى المفتى بجواز العمل بمقاومة المعارضين له ، وقد وافق كبار ضباط الانكشارية على إدخال النظم العسكرية ظاهرا وأبطنوا خلاف ذلك إذ سرعان ما ثاروا عند تنفيذ هذه الاصلاحات وخاصة أنها ستفقدهم سلطانهم ، فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية التمرد فشجعوه على إبادة الانكشارية ، لذلك استعد لقتالهم ، وأمر بأن تحيط المدفعية بميدان (آت ميدانى) الذى اجتمع فيه العصاة وأن توجه قذائفها عليهم ، وقد حاول الانكشارية الهجوم على المدافع ولكنها أحرقتهم بلهيب نيرانها فهربوا إلى ثكناتهم طلبا للنجاة فأحرقت وهدمت فوقهم وبذلك قضى على قوتهم بصفة نهائية ، وقضى معهم على فرقة البكتاشية الصوفية التى كانت تساندهم ، وصدر مرسوم سلطانى بإلغاء فئة الانكشارية وملابسهم واصطلاحاتهم وإعدام كل من تبقى منهم وكان ذلك فى التاسع من ذى القعدة ١٢٤١هـ(١).

وبذلك انفتح الطريق لبناء النظم العسكرية الحديثة فى الجيش العثمانى وأزيلت الحواجز أمام دخول الخبراء الأوربيين لتطويره .

والسؤال المطروح: هل كان القضاء على الانكشارية فى صالح الدولة العثمانية من ناحية القوة العسكرية أم كان سببا فى اضعافها وازدياد التغلغل الأوربى فى ممتلكاتها.

الواقع أن القضاء الانكشارية قد أتاح الفرصة للأوربيين وغيرهم لالحاق العديد من الهزائم بالدولة العثمانية التى بدت أمامهم شبه عارية وحررهم من الرهبة منها وكان من الأجدى بالسلاطين العثمانيين القضاء على الأسباب التى أفسدت الانكشارية وليس القضاء على الانكشارية كنظام والدليل على ذلك أنه بعد القضاء على الانكشارية بسنوات قليلة تمكنت الروسيا من الاستيلاء على العديد من المناطق والأقاليم التابعة للعثمانيين وأجبرت السلطان على توقيع معاهدات مهينة منها إجباره فى عام ١٨٢٩ على توقيع اتفاق تنفتح به أبواب الدولة العثمانية أمام الروس من ناحيتى القوقاز والدانوب ، ومن ناحية أخرى فقد تم هزيمة الدولة العثمانية فى موقعة نفارين البحرية فى عام ١٨٢٧م وتحطم أسطولها، واضطر السلطان إلى الموافقة على استقلال اليونان ، كما نجحت فرنسا فى الاستيلاء على الجزائر فى عام ١٨٣٠م ، هذا إلى جانب قيام محمد على بحملته على بلاد الشام فى عام ١٨٣٠م ونجاحه فى إلحاق العديد من الهزائم بالعثمانيين واعلان داود باشا والى العراق العصيان على الدولة .

١- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ١٣٤-١٣٥

ومما سبق يتضح أن الانكشارية كانوا فى بداية نشأتهم قوام الجيش العثمانى وعماده ، وأنهم شاركوا بشكل أساسى فى الدفاع عن الدولة وخلال فتوحاتها ، وبذلوا النفس والنفيس فى سبيل اعلاء شأن الإسلام ، ولكن وضعهم سرعان ما تغير فدب الضعف والفساد فى نظامهم ، ووقفوا حجر عثرة أمام كل المحاولات الرامية إلى تحديث الجيش العثمانى كما تحولوا إلى عصابات مسلحة هدفها الاعتداء على النظام ، والتدخل فى سياسة الدولة العليا وترويع الآمنين والاعتداء على حرماتهم ، مما دفع بالسلاطين إلى القضاء عليهم .